الفصـــل الأول

«مـن صـــور التنـــوير»

تمهيـد :

إن مفهوم التنوير بشكل عام هو شكل من أشكال الفكر الذي يريد تنوير العقول من الظلام، الجهل والخرافة. وعندما سُئل «كانط» عن ما هو التنوير؟ أجاب بقوله: «إنه خروج الإنسان عن مرحلة القصور العقلي وبلوغه سن النضج العقلي»، كما عرف القصور العقلي على أنه: «التبعية للآخرين وعدم القدرة على التفكير الشخصي أو السلوك في الحياة أو اتخاذ أي قرار بدون استشارة الشخص الوصي علينا[1].

ويرى الباحث البلجيكي "رولان مورتييه" أن القرن الثامن عشر هو أول عصر في التاريخ يشعر بذاتيته، و كيانه، ووحدته كما يشعر بأنه مكلف بتأدية رسالة مهمة للبشرية هي التنوير. إنه أول عصر يبلور لنفسه برنامج عمل واضح المعالم من خلال كتابات للفلاسفة ومعاركهم الفكرية ومصطلح التنوير يعود إلى هذا العصر بالذات[2].

سيدور هذا الفصل حول رؤية "أو هير" لعصر التنوير وهل ساهم رجال هذه المرحلة في تحقيق التقدم المنشود أم أخفقت مساعيهم في الوصول؟ بدءًا من فرانسس بيكون والذي كان يرغب في تحرير وضع الإنسان عن طريق رفض السابق والتركيز على الملاحظة والتجربة، مرورًا بنيوتن وقوانينه الثلاثة التي جاءت لتسيطر على عقول الناس لقرون، وصولًا لفلاسفة التنوير (هلفسيوس- فولتير- ديدرو- لاميتر- كوندورسيه- هولباخ)، والذين ردوا العالم لوقائع أو إحساسات فيزيائية، بما في ذلك الإنسان.

في حقيقة الأمر لقد كانت هذه المرحلة تتأرجح بين قوة النظرية العلمية وبين القوة الترنسندينتالية، السياسية والاجتماعية، بين خرافة العلم وخرافة الدين والسياسة. . . . هذا ما سيحاول "أو هير" - ونحن معه- إلقاء الضوء عليه لنعرف هل نجحت هذه المحاولات في تحقيق التقدم الإنساني وتحرره، أم أدت إلى ارتكاس الوضع الإنساني و زادت في تقيده؟

١- الموقف من فرانسس بيكون (تحطيم الأوهام)

إن «فرانسس بيكون «Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦م) من الشخصيات

(1) http:..www.assuaal.net.content.
(2) http:..elaph.com.Web.ElaphWriter.2009.3.420148.htm

التي كثرت الآراء حولها. فهو في نظر البعض "أقدر عقلية أنجبتها العصور الحديثة"، ومصنفاته "أعظم إنتاج للفكر الإنساني منذ عصر "أرسطو" وفلسفته قد حركت العقول التي حركت العالم[١].

ولكن في نظر «أنطوني أو›هير" وبكلماته " كان المتحدث والفيلسوف الانجليزي فرانسس بيكون أحد المؤيدين الأوائل والأكثر نشاطًا لعقلانية التنوير والإهمال في خدمة التقدم[٢].(*)

طبقًا ل «بيكون» فإن العالم الوسيط لا يستشير التجربة، بينما ينبغي ذلك من أجل تشكيل قراراته وبديهياته، وإنما يحدد السؤال طبقا لرغبته، ثم يعود إلى التجربة، ويمزجها في أجزائها مثل «الأسير في الموكب»[٣] ؛ إلا أن « فرانسس بيكون» كان هدفه الأخذ بيد الإنسان نحو التقدم، والسيادة على الطبيعة، « وإذا أردنا أن نتحكم في الطبيعة، فيجب أن نبدأ بطاعتها من خلال الملاحظة الطويلة المتأنية، النظامية وغير الضارة. هنا وهنا فقط سوف نفهم الأسباب الحقيقية للأشياء، ونكون قادرين لأول مرة على السيطرة على الطبيعة من أجل مصلحتنا[٤].

وإذا أردنا أن نصل إلى الهدف المنشود لابد لنا من مراعاة شرطين أساسيين:-

أولا: شرط ذاتي يتمثل في تطهير العقل من كل الأحكام السابقة والأوهام والأخطاء التي انحدرت إليه من الأجيال السالفة.

ثانيا: شرط موضوعي يتمثل في رد العلوم إلى الخبرة والتجربة[٥].

---

(١)محمود حمدي زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٣، ص٣٣

(2) O'Hear,Anthony, After Progress, p.15

(*)إن الفيلسوف الإنجليزي فرنسس بيكون كان الأقدر على تجريد وتجسيد روح عصره باستقطابه لسؤال الطبيعة وتبنيه الدعوة لمنهج البحث المنصب عليها والملائم لها، المنهج التجريبي أو الاستقرائي أساس شريعة العلم الحديث فاقترن اسم بيكون بحركة= =العلم الحديث وعد وكأنه أبوه الشرعي الذي صاغ صك شهادة ميلاده الرسمية. فتنقش مكتبة الكونجرس الأمريكي في واشنطن أكبر مكتبة في العالم- اسمه أعلى إحدى بواباتها المذهبة بوصفه واحداً من الذين قادوا البشرية إلى العصر الحديث وعلمه. (انظر يمنى طريف خولي- فلسفة العلم في القرن العشرين).

(3) O'Hear, Anthony, After Progress, p.16

(4) Ibid, p.16

(٥)انظر، محمود حمدي زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، ص٤٢.

الأوهـام:

لقد كان «بيكون» يرى أن العقل أشبه بالمرآة التي لا تقوم بوظيفتها كاملة إلا إذا تم صقلها صقلًا تامًا حتى تزول منها جميع الأوساخ، وإذا تم كذلك توجيهها التوجيه المناسب نحو النور ثم بعد هذا وذاك يوضع أمامها الشيء الذي نريد رؤيته فيها في المكان الملائم الذي يسمح بظهوره كاملًا فيها[1].

إن ما يريده «بيكون» هو الوصول إلى المعرفة الصحيحة، وذلك لن يتم إلا بتطهير العقل من كل الأوهام التي تقف في طريق التفكير السليم. فإذا تم تطهير العقل الإنساني من أوهامه أمكنه التوجه للمعرفة الصحيحة.

أوهام الجنس أو أوهام القبيلة:

وهذه الأوهام تعد أوهامًا طبيعية لدي البشر بصفة عامة، وترجع إلى نقص العقل الإنساني، إذ إنه يعمم حيث لا يجوز التعميم، ويتوهم أشياء لا أساس لها لمجرد أنها صادفت هوى أو رغبة خاصة، وهكذا نميل إلى تصديق الخرافات والتنجيم والأساطير.

أوهـام الكهـف:

وهي أوهام ذات طبيعة فردية، أو هي عبارة عن نقاط الضعف الفردية في كل شخص، ولذلك تختلف باختلاف الأفراد حسب البيئة والتعليم والعادات الموروثة .

أوهـام السـوق:

وهي أوهام ناشئة عن ميل الذهن إلى الانبهار بالألفاظ المستعملة في التجارة، واجتماع الناس، حيث ينجم عن سوء تكوين هذه الألفاظ أخطاء كثيرة تؤدي إلى تعطيل شديد للعقل نفسه وليست اللغة في حد ذاتها هي مصدر هذه الأخطاء، وإنما استعمالها الخاطئ هو الذي يؤدي إلى الغموض والالتباس.

أوهـام المسـرح:

وهي أوهام انحدرت إلينا من أفكار الفلاسفة القدماء. ويقول «بيكون» في هذا الصدد» في رأيي أن كل مذاهب الفلسفة التي انحدرت إلينا ليست إلا روايات مسرحية « والخطأ الذي ترتكبه الغالبية العظمي منا هو إننا نجعل هذه المسرحية أقرب إلى ما نرغب أن

(٣٤) مصطفى النشار: مدخل جديد إلى لفلسفة، دار قباء، القاهرة، ط١، ١٩٩٨، ص ١٣٠

تكون مما هي في الحقيقة والواقع[١].

ولكن للتخلص من كل هذه الأوهام، ماذا يجب علينا أن نفعل ؟

إذا ما نجح كل منا في التخلص من هذه الأوهام الأربعة بعزيمة قوية وإرادة عقلية واعية لأمكنه بعد ذلك أن يدخل إلى مملكة العلوم عبر بوابتها الرئيسية، ألا وهو المنهج الاستقرائي الذي يبدأ بالملاحظات الحسية وهذا ما يقدمه «بيكون» في الجانب الإيجابي من فلسفته العلمية (الاستقراء العلمي). إن المعرفة العلمية عند «بيكون» تبدأ من الشك فيما قال السابقون، ومن التجربة والخطأ وتصنيف الملاحظات وإعادة تصنيفها دون يأس أو ملل[٢].

يجب أن نبدأ من جديد من الأسس الأولية، ما لم ندور في دائرة ذات تقدم وضيع وحقير، «وفوق كل ذلك لا يجب أن نفترض أي توافق بين عقولنا والعالم الطبيعي. فمثل هذا الافتراض هو عدم القيام بالعلوم الوسيطة، وهو ميل حتمي لافتراض أن الترتيب الطبيعي للأشياء سوف يتوافق في الحال مع أفكارنا عما يجب أن يكون «فالكل يعتمد على تركيز النظر بثبات على حقائق الطبيعة وتلقي الصور ببساطة كما هي»[٣].

إن «بيكون» كان يعتبر أن المنهج العلمي وحده هو الذي يعطي الإنسان سيطرة على الطبيعة، وهو بأمثال هذه الآراء افتتح عصر إخضاع الطبيعة للإرادة الإنسانية ومعاملتها كخصم لنا، وما نحصده اليوم من جراء هذه المعاملة من تدمير لها ولنا معاً[٤]، فعند «بيكون» نجد أن التنوير المتميز يؤكد على العلم وعلى الإجراء العلمي والضروري لغياب الإجحاف والخرافة[٥].

هذا ما أراده «بيكون» تحقيق السعادة، التخلص من الألم، تحرير وضع الإنسان، السيطرة على الطبيعة، ولقد وجد كل هذا من وجهة نظره – في العلم، رد كل شيءإلي التجربة والملاحظة، ورفض كل السابق.

أما عن نظرة "أوهير" في العلم، فلقد اختلف "أوهير" مع «بيكون» وكذلك «نيوتن»

---

(١) محمود حمدي زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، ص٤٣

(٢) مصطفى النشار: مدخل جديد إلى لفلسفة، ص ١٣٠

(3) O'Hear, Anthony, After Progress, p.18

(٤) هاني يحيى نصري: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢،ص١٦٣

(5) O'Hear, Anthony, op.cit,p.19

كما سنري ولكن ليس في كل شيء، فلم يقف "أو'هير" ضد العلم موقف الرفض التام كما فعل كثير من الفلاسفة أمثال روسو، هيردر، بروك و دي مايستر. ولكنه اعترض على ما خلفته العلوم في مجتمعاتنا الإنسانية.

وفي كتابة «ما بعد التقدم After Progress" وضع "أو'هير" مرات ومرات كيف أثرت التطورات والنظريات العلمية على بصائرنا واعتقاداتنا الأكثر قيمة، ووضح ذلك بوصفه الخاص "إن العلوم لا يمكنها ولا تقوم بترك أي شيءآخر كما هو ففي ادعائها باستكمال الموضوعية غير المجحفة، نجدها تتخلص من كل شيء لا يتناسب مع إطار عملها كمجرد خرافة".

لقد كان هدف "بيكون" تحرير وضع الإنسان، لذلك مع بداية ١٦٢٠م قامت الفلسفة – كما يوضح أو›هير– بتفضل الآلات النوعية على الاوركسترا السيمفونية، وهي تحول الكنائس القديمة إلى مراكز مجتمعية تبيع أعمالها في الفنون لتوفير دور الحضانة وإعداد الأم، والتي تنسى أن ما هو ذو قيمة يمكن تحقيقه فقط من خلال الكفاح والمعاناة، وأن هناك أهداف في الحياة أعلي من التخلص من الألم وخلق السعادة[٦].

لقد وضح «بيكون» في روايته « أطلنتس الجديدة « كيف يؤثر العلماء على الحكماء. وأن اكتشافاتهم هي التي حددت ما يعد تحرير لوضع الإنسان وما ينبغي فعله. مضمون الرسالة هو بمثابة دعوة للناس عامة وللعلماء خاصة إلى السعي نحو معرفة مكانة الإنسان من الطبيعة لاتضح لنا أن ما يترتب على هذا السعي هو إدراك الناس بأن التفكير الفلسفي لا ينبغي أن يتجه إلى ما فوق الطبيعة و أن يتخذ الجدل والنقاش أداة له، وإنما عليه أن يتجه نحو الأرض وظواهر الطبيعة، وأن يتخذ التجريب وأساليبه المختلفة أداة له[٧]. وهذا ماوضحه "أو'هير" ، «فلقد قام المجتمع البشري على قواعد العلماء الأساسية بإعادة بناء العلوم والفنون الإنسانية نفسها. وفي عام ١٩٩٩م وضعت التطورات العلمية خاصة في مجالات الطب والجينات من أجل التخلص من المفاهيم القديمة لقداسة الحياة والحياة البشرية. فالعلم يدفع تطور أنظمتنا في القيمة، وليس العكس»[٨]. في رأي "أو'هير" أنه

(6) O'Hear, Anthony, After Progress, p.16
(7) Ibid, p.19

(٨) أنظر، حبيب الشاروني: فلسفة فرانسس بيكون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨١، ص ٢٧

في مستوي عميق، لا يعد العلم حر القيمة، لكنه يحدد تعرية القيمة، من خلال ما يكون ممكنا وبما يبدو أنه يخبرنا عن أنفسنا[1] .

وفما يلي ستوضح الباحثة الفكرة التي دارت حولها النقطة السابقة ليكون جليًا ما هي المأخذ التي أخذها "أو'هير" على «بيكون» كممثل لتلك المرحلة

إن «بيكون» في رؤيته للعالم الوسيط بأنه لا يستشير التجربة، بل يحدد السؤال طبقًا لرغبته، وأن العقل أشبه بالمرآة التى يجب أن تزول عنها جميع الأوساخ، وهو ما وصفه بالأوهام. كان هذا مبرره لرد كل شيء إلى التجربة والملاحظة ورفض كل السابق. وأصبح التنوير المتميز – عنده- يؤكد على العلم لغياب الإجحاف والخرافة أي أن العلم هو السبيل لإزالة كل الأوساخ التي علقت بالعقل. وكان هدف «بيكون» من هذا تحرير وضع الإنسان، السيطرة على الطبيعة، تحقيق السعادة والتخلص من الألم. ولكن "أو'هير" رأى أن التطورات والنظريات العلمية التي نادا بيكون بتطبيق منهجها (التجربة والملاحظة) أثرت على معتقاداتنا الأكثر قيمة. فتخلصت من كل شيء لا يتناسب مع إطار عملها على أنها مجرد خرافة. وكانت التطورات العلمية تعمل من أجل التخلص من المفاهيم القديمة لقداسة الحياة والحياة البشرية. فالعلم عنده لا يعد حر القيمة، لكنه يحدد تعرية القيمة، من خلال ما يكون ممكنًا وبما يبدو أنه يخبرنا عن أنفسنا. وبناء على ما سبق يمكن القول إن رأي "أو'هير" في النهاية هو أن هناك أهداف في الحياة أعلى من التخلص من الألم وخلق السعادة. وكان هذا بمثابة ضربة هزت منهج «بيكون»، وليس «بيكون» وحده بل وكل من سار على نفس الدرب.

وإذا كنا قد تناولنا فيما سبق عن «فرانسس بيكون» ونظرته العلمية للعالم، سوف تنتقل الباحثة الآن للحديث عن المثال الثاني لهذا البحث والذي أتى بعد «فرانسس بيكون» والذي أحدثت نظرياته العلمية الكثير والكثير من التغيرات، بل وأثرت في كثير من العلماء، لقد ظهر هذا العالم في القرن السابع عشر، وأثرت قوانينه الثلاث على عقول الناس والعلماء لسنوات، اتضح فيها أن الأساس للتقدم هو الملاحظة، الملاحظة والملاحظة الأكثر – التحليل، التلسكوب والميكروسكوب إنه «نيوتن».

---

(1) O'Hear, Anthony,After Progress, p.19

٢- نيوتن و آلته العلمية:

لقد وضح «برتراند راسل»في كتابه «أثر العلم في المجتمع» أن هناك ثمة ثلاث مكونات ذات أهمية خاصة للنظرة العلمية في القرن السابع عشر وهي:

١- إن تقرير الحقائق يجب أن يبني على الملاحظة لاعلى الرواية غير المؤيدة.

٢- إن العالم غير الحيواني نظام متفاعل في نفسه، مستبق لنفسه، وتنطبق كل التغيرات فيه مع قوانين الطبيعة.

٣- إن الأرض ليست مركز الكون، وإن الإنسان ربما لا يكون الهدف من وجودها، إذا كان لوجودها أي هدف- وفوق ذلك إن فكرة الهدف فكرة لا فائدة منها من الناحية العلمية.

ومن هذه الأمور يتكون ما يسمي «النظرة الميكانيكية» التي ندد بها رجال الكنيسة[١].

ويعتبر «نيوتن Newton(١٦٤٢-١٧٢٧م)" من أشهر العلماء الذين اعتنقوا النظرة الميكانيكية ويمكن القول إن القوانين الثلاث التي قدمها "نيوتن" هي لبيان أن معظم الحركات التي تحدث في العالم يمكن تفسيرها في إطار تلك القوانين الحسابية البسيطة، كان ذلك وبكلمات "أو هير" "انجاز مذهل وجريء، وليس من المفاجئ أنه جاء ليسيطر على عقول الناس لقرون»[٢].

فما هي تلك القوانين الثلاثة؟

١- كل جسم يواصل حالته من السكون أو الحركة في خط مستقيم ما لم يقصر على تغيير تلك الحالة بقوة مسلطة عليه.

٢- يتناسب تغير الحركة مع القوة الدافعة المسلطة على الجسم و يكون في اتجاه الخط المستقيم الذي سلطت عليه تلك القوة.

٣- لكل فعل رد فعل معاكس ومساو له: أو إن الفعلين المتبادلين لجسمين متساويان دائماً[٣].

طبقًا لتلك القوانين كانت كرات البلياردـ عربات الفلاحين، ودوران الكواكب، كلها

(١) برتراند راسل: أثر العلم في المجتمع، ترجمة: تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٥

(2) Anthony O'Hear: After Progress, p.13

(٣) علي الشوك: الثورة العلمية الحديثة وما بعدها، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط١، ٢٠٠٤، ص ٥٨

تعمل بنفس القوانين. ولقد أوضح « نيوتن» أنه من أجل التفسير العلمي يمكن تجاهل مظاهر الأشياء لونها، ملمسها، طعمها، صوتها، ورائحتها وتدعى هذه الأشياء الصفات الثانوية[١].

ففي عمله المسمى opticks (أو علم البصريات) قرر "نيوتن" أن اللون ليس له وجود في العالم الواقعي. لأن العالم الواقعي يحتوي على جزيئات لا لون لها. وانطباعنا الذي يفيد بأن العالم يتألف من موضوعات تصنف بألوان، هذا الانطباع يحدث نظرًا لأن الجزيئات التي لا لون لها تضرب شبكية العين عملية إدراك الصوت وغيره من الصفات الثانوية الأخرى[٢].

هذه هي نظرة «نيوتن» للعالم، والتي وضحها في مقولته « hyphotheses non fingo" أنا لا أخترع الافتراضات"، وبعد هذه المقولة جاءت كلمات "أو'هير" لتعبر عن موقفه من عالم نيوتن بقوله: "لقد حرموا العالم بهذه النظرة ليس فقط من الصفات الثانوية التي غلبت على فهمنا له: كان عالم "نيوتن" أيضًا منتظم متوقع ومحدد كقطعة من عمل الساعة. إن المحتوى الذي تضمنه الكون النيوتوني كان الحلم (أو الكابوس) بذكاء الجنس البشري السامي"[٣].

بالاستناد لمثل هذا الإدراك، لن يكون هناك شيء غير مؤكد وسيكون المستقبل كالماضي حاضر في عينيه. إن كابوس الحتمية الكلية والغياب الكامل للحرية والفرصة في العالم، أحكم الخناق علينا[٤].

بشكل أكثر جوهرية، لقد أصبح واضحًا أنه إذا كان الجنس البشري أيضا جزءًا من العالم المادي الذي وصفه «نيوتن»، حينها يتحتم تفسير الطبيعة الإنسانية في إطارات تشبه الأنواع الأخرى من الأشياء في هذا العالم[٥].

إن رؤية «نيوتن»- كما يراها أو'هير -لم تفتح أي مكان للأرواح أو النفوس أو حتى

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.14

(٢) أنطوني أو'هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ط١، ٢٠١١، ص١٠٥

(3) O'Hear, Anthony, After Progress, p.14

(4) Ibid, p.15

(5) Ibid, p.16

الحرية الإرادة الإنسانية. فنحن لا نكون في نهاية المطاف سوي جزء من العالم الطبيعي ونحن نخضع لقوانينه، على غرار ما تفعله الذرات وكرات البلياردو. ويجب أن يكون من الممكن تقديم تفسيرات علمية للسلوك الإنساني الذي لا يستخدم إلا مفاهيم وتفسيرات علمية. فنحن لسنا بحاجة إلى الاحتكام إلى الرغبات والمقاصد أو الحالات الشعورية التي يتصف الحديث عنها بالغموض وعدم القابلية للإثبات والتكميم[١]. لذلك فإن الحرية البشرية تعد وهمًا، ويمكن رؤية ذلك بمجرد عمل العلوم الخاص بالسلوك البشري[٢].

وبصورة متزايدة، فما أن تم إقرار رؤية «نيوتن» في القرن الثامن عشر وبالرغم من تصوفه، حتى أصبح الله لا أهمية له. وكان الله» في أفضل الأحوال المهندس المعماري المنعزل الذي شيد الكون وقوانينه. ولقد ترتب على إقرارهذه الرؤية أن أصبح «الله» لا يلعب أي دور في العالم. لإن تفسير ما يحدث بالفعل في العالم لا يحتاج إلى الاستعانة «بالله». فالأشياء كانت قد حدثت بالشكل الذي جاء في القوانين العلمية[٣].

لقد اتضحت نظرة «نيوتن» للعالم بوضعه لقوانين الحسابية الثلاث واتضح أثرها على العالم في القرون التي تلت»نيوتن» ومدي تأثيرها على طريقتنا في تفسير الطبيعة ولكن لفيلسوفنا «أنطوني أو›هير" وجهة نظره اتجاه العلم لم يكن فيها ضد العلم ولكنه لم يكن معه في كل جوانبه.

ففي كتابه "الفلسفة في قرن جديد philosophy in the new century" في فصل بعنوانه "العلم" يقول: هناك صعوبات وأشكال من عدم اليقين متعلقة بالمعرفة العلمية، وغير أنها ليست من النوع الذي يقوض الصرح العلمي من أساسه أو ليست من النوع الذي يكذب الاعتقاد في أن تلك المعرفة أحدثت صورًا هائلة من التقدم. فالشك في التقدم العلمي يماثل أي شكل آخر من أشكال الشك القديمة[٤].

فما هي أوجه القصور في المعرفة العلمية عند أو›هير ؟

في مقال بعنوان «العلم والدين science and religion" عرف "أو›هير"

(١) أنطوني أو›هير : الفلسفة في قرن جديد، وهبة طلعت أبو العلا، ص١٠٦

(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.16

(٣) أنطوني أو›هير: الفلسفة في قرن جديد، وهبة طلعت أبو العلا، ص١٠٥

(٤) نفسه، ص١٠٣

العلم بأنه "محاولة لتصنيف ووصف وتفسير الظواهر الطبيعية بأحكام الرياضة الاختزالية: أي أنه يري التنوع العظيم للظواهر الطبيعية في إطار العمليات الممثلة كميًا من أعداد صغيرة من الأشياء أو الإجراءات التي تظهر كسبب مسئول عن الظواهر. وبتطبيق ذلك، فهو يستنبط مما يرى خواص سببية غير متصلة لظواهر الصفات الثانوية والكثير مما يماثل ذلك. من وجهة نظر التجربة البشرية تلغي الصورة العلمية الكثير مما هو هام ومعبر[1].

بالنظر للعبارة التالية التي تم اقتباسها من «بروست Proust" والتي تقول: إن المدينة التي رأيتها أمامي لم تعد هي "فينسيا". فشخصيتها وإسمها يبدوان لي محض خيالات كاذبة لم أعد أتحلي بالشجاعة حتى أطبعها على أحجارها. فلقد رأيت القصور وقد ردت إلى الأجزاء التي تتكون منها رأيتها أكوامًا رخامية لا حياة فيها ولا فروق بينها ورأيت الماء المكون من أوكسجين وهيدروجين، يقف متشيئًا وفاقد للحس أمام "فينسيا" وخارجها أمام "فينسيا" التي لم تعد تعي الكلاب ولا حتى رعيان الماشية[2].

كان «بروست»يكتب عن الإحساس الخاص بإزالة الطابع الشخصي والذي انتابه كجزء من الإحساس الخاص بالأسف والندم بسبب تعامله مع أمه بقسوة وأنانية. ولكن التفسير العلمي الجاف ل«فينيسيا» لايدرك من المعاني الإنسانية سوي ما أشار إليه «بروست» فيما يتعلق بحالة الاضطراب النفسي التي أصابته. فيما يتعلق بالتفسير العلمي لقد أصبحت المياه تتكون بالفعل من الهيدروجين والأكسجين بالإضافة إلى القصور المكونة من الجزيئات الصغيرة جدًا، كما أن اسم «فينسيا» أصبح خيال لأنها لم تكن بمثابة لحظات فاصلة في التاريخ الطبيعي لكائنات عاشت لفترات زمنية قصيرة حيث أنها لم تكن ذات أهمية أو قيمة أكبر من لحظات أخرى[3].

لا يوجد أي اعتراض على هذا الوصف في محيط التفسير العلمي. ولكن هذا لا يترتب

---

(1) O'Hear, Anthony ,science and religion, the British journal for philosophy of science,Vol.441, No.3, Oxford University Press, 2010, p.512

(٢) أنطوني أو›هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، ص١١١

(3) O'Hear, Anthony, Verstehen and Humane understanding, Cambridge University Press, United Kingdom, 1996, p.6

عليه أن يكون الوصف المحمل بمعان إنسانية معبرًا بالتالي عن مجموعة من الأوهام أو الخيالات الكاذبة. فالاسم «فينسيا» يفترض سلفًا بعض جوانب التاريخ الإنساني. كما أن «فينسيا» تتألف من أحجار مأخوذة من البحر لكنها ليست مجرد موضوع مادي فحسب. إنها تكون أيضًا عبارة عن مؤسسة لن يمكن فهم أهميتها إلا من خلال معرفة الموجودات الإنسانية. من خلال معرفة تاريخهم وعاداتهم. ولكن ماهية «فينسيا» ومعناها لا يصبحان ذاتيين بمعني من المعاني لمجرد أن من المحتمل أن يستعصى إدراك هذه الأشياء على مخلوقات أخرى تنتمي إلى جانب آخر من الكون[١].

تتمثل الصورة التي تتيحها العلوم الحديثة عن العالم في العلم الذي لا يتم إدراكه من جانب الإنسان والذي لا يتم من خلاله إزالة الصفات الثانوية فقط كـ(اللون– التذوق– الصوت) ولكن تصبح كذلك من خلال الأشياء المعتادة ذات الإستخدام اليومي بمثابة مجموعة متشابكة من الجزئيات التي لا تتسم بالوضوح[٢].

يمكن القول إن اللون وغيره من الصفات الثانوية تكون صفات غير جوهرية من الناحية العلية. فهذه الأشياء تكون هي نفسها من نتاج موجات ضوئية وصوتية طولية تكون لها ترددات معينة إلى جانب عناصر فيزيائية أخرى يمكن وصفها وصفًا كاملًا بدون الإشارة إلى صفات ثانوية. وبالرغم من ذلك فهذا لا يوضح أن اللون وغيره من الصفات الثانوية الأخرى لا تتمتع بالوجود. وحتى إذا كان اللون وبقية الصفات الثانوية الأخرى لا تظهر في التفسير العلمي للعلل، إلا أن هذا لا يعني أنها ليست لها نتائج أو مؤثرات عليه[٣].

يؤكد "أو›هير" على أن الصفات الثانوية تتمتع بالوجود، فأنها أيضا لها نتائج ومؤثرات، فيقول: «إن الشيء الأكيد هو أن لها نتائج أو المؤثرات على العالم الإنساني، حيث يتأثر الكثير مما نفعله بإدراكنا للصفات الثانوية. مهما كانت احتمالية صدق أي تحليل علمي للون، بلغت أطوال الموجات وغيرها، إلا أن قراري دهان منزلي باللون الأزرق الذي اخترته، يكون مدفوعًا بطريقة ظهور اللون بالنسبة لي– وللآخرين– وبعلاقة ذلك

(١) أنطوني أو›هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، ص١١١

(2) O›Hear, Anthony, Verstehen and Humane understanding, p.5

(٣) أنطوني أو›هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، ص١١٢

ببقية الألوان في حجرتي. هذا يعني، بتعبير آخر، أن الشيء الحاسم في اختياري للون وفي كيفية ردود أفعال الآخرين تجاهه، سوف يتوقف على طبيعته كصفة ثانوية تتمتع بالمظهر الذي تظهر به والذي يكون مناسبًا لمن يلاحظه»[١] .

كما أن مثل هذا التفسير يتجاهل أيضًا كل ما من شأنه أن يجعل هذه الحزمة من الأوصال والأعضاء التي تقف في مواجهتي عبارة عن طفل أحبه، أو عبارة عن منافس لي في العمل، أو عبارة عن رفيق لي في حانة من الحانات. وذلك لأننا عندما نقوم كأشخاص برد الفعل تجاه بعضنا البعض ، نجد أننا نقوم برد فعل تجاههم كموجودات لها دوافع، ومقاصد، ورغبات، وعواطف، ومعتقدات، وشخصيات، وغيرها، وهذا يعني، بتعبير آخر، كموجودات تكشف عن تلك الصفات والاتجاهات التي تقول المادية الاختزالية[٢](×). إنها يمكن التخلص منها، والسؤال هو: هل يستطيع العلم أن يوضح أن هذه الأشياء يمكن التخلص منها بالفعل؟ إن الإجابة على هذا السؤال هي بالنفي[٣] .

كل هذا جعل العلم– من وجهة نظر "أوهير" وكما وصفه – يخلو من أي قيمة، وفي توضيح هذا الأمر يقول "أوهير" يتمثل الجانب الصواب الخاص بإدراك العلوم باعتبارها تخلو من القيم في المادة العلمية والمناهج البحثية المتبعة في العلوم– تتمثل المادة العلمية الخاصة بالعلوم في وصف، وتحليل وتفسير العمليات الطبيعية التي تتحقق من خلال عمليات طبيعية أخرى وفقًا للوائح والقوانين الطبيعية – كما تشمل المناهج البحثية الخاصة بالعلوم ملاحظة وقياس الظاهر من خلال أشخاص كفء يقومون بتسجيل الملاحظات، بغض النظر عن معتقداتهم، دوافعهم وخلفياتهم الثقافية والاختبارات الصارمة الخاصة بالنظريات التي تتعارض مع هذه الملاحظات والقياسات والتي يقوم بإجرائها علماء آخرين بغض النظر عن الأيديولوجية أو الخلفية الخاصة بهم[٤] .

---

(١)أنطوني أو›هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، ص١١٢

(٢) الاختزالية : تعني إما أنها لفهم طبيعة الأشياء المعقدة عن طريق اختزالها إلى تفاعلات من أجزائها، أو إلى أشياء أكثر بساطة أو أكثر أساسية ؛ أو هي موقفاً فلسفياً يعني أن أي نظام معقد ليس سوى مجموعة أجزاءه وأنه يمكن اختزال أي جزء منه إلى أجزاء تتألف من مقومات أساسية فردية.

(٣)أنطوني أو›هير: الفلسفة في قرن جديد، وهبة طلعت أبو العلا، ص١١٣

(4) Hear, Anthony,Verstehen and Humane understanding, p.5

في النهاية يوضح "أو'هير" أنه يتم الحصول على العلوم من خلال العديد من السمات التي تتسم بالأهمية بالنسبة لنا في إطار حياتنا اليومية. بالإضافة إلى ذلك، فهي تعلمنا دراسة العالم بطريقة تتجرد من كل القيم. فنحن نراقبه كما هو في ذاته، متوافقين مع حتميته السببية وتركيبه، وليس وفقًا لكيفية تأثيره علينا أو ما نرغب في أن يكون عليه. ففي العلوم، لا يتم التمركز حول القيم والمعاني التي يحملها العالم بالنسبة لنا. في هذا الصدد، تكون العلوم خالية من القيم، ولهذا، لا يمكن للعلوم أن تشكل ثقافة ما أو حتى أنصاف ثقافة. فيما يتعلق بالتفسيرات وعمليات الوصف الخاصة بالعلوم، يتم وبشكل صارم استثناء المصطلحات التي يتم من خلالها تحديد الإطار الخاص بالمناقشات المعينة بالقيم بالإضافة إلى العديد من التنبؤات التي تشير إلى الطريقة التي نشعر من خلالها بالانجذاب إلى العالم أو النفور منه فيما يتعلق بأي الاهتمامات الطبيعية الإنسانية التي يتم إدراكها والتعبير عنها[1].

إن المذهب العلمي بكلمات «جون كيكيزJohn Kekes" – في تعليقه على كتاب "الفلسفة في قرن جديد "لفيلسوفنا "أو'هير" – هو انحراف لأنه يهمل أو يشوه الأخلاق، الجمال، البعد الديني للحياة بشكل مشين. يترتب على ذلك تشويه بذئ وجاف للسمات الأساسية لوجودنا. إن نزعته المادية تسلبنا القوة بالإصرار بأن وجهة النظر الوحيدة المعقولة للحقيقة يجب أن تكون لا بشرية. إنه بذلك ينفي العديد من القيم التي تجعل من حياتنا حياة مجدية. إنه هجوم وحشي عميق الأثر على إنسانيتنا[2].

فيما سبق أوضح «نيوتن» أنه من أجل التفسير العلمي يمكن تجاهل مظاهر الأشياء مثل اللون، الملمس، الطعم، وهي الصفات الثانوية والتي يعتبرها التفسير العلمي صفات غير جوهرية من الناحية العلية. كما أن عالم «نيوتن» منتظم متوقع ومحدد كقطعة من عمل الساعة. وترتب عليه أن «الله» أصبح لا يلعب دورًا في العالم. وبهذا يرى "أو'هير" أن العلوم خالية من القيم، كما أنه كل شيء سيكون مؤكدًا، ويصبح المستقبل كالماضي حاضرًا في عينيه. وهو ما وصفه "أو'هير" بأنه كابوس الحتمية الكلية والغياب الكامل للحرية.

(1) O'Hear, Anthony,Verstehen and Humane understanding, p.7
(2) John Kekes,(Anthony O'Hear: Philosophy in the new century), Mind new series, Vol. 111, No.442, Oxford University Press, 2002, p.460

ويعتقد الباحث أن وصف "أوهير" بأن العلوم تخلو من القيم فيه اجحاف على مفهوم القيمة نفسه، وبالرجوع إلى مفهوم القيمة[1](*) نجد أنه لا يمكن أن تخلو العلوم،

(١) (*) مفهوم القيمة: لقد تبين لنا في تمهيدنا للبحث أن مشكلة القيمة والتقويم تكمن في مدى فهم الفلاسفة والمفكرين لمفهوم القيمة، وأن إنياز البعض إلى الأحكام التقريرية أو الأحكام التقويمية كان ناجماً عن فهم محدد للقيمة وللتقويم من جهة والتفسير أو التأويل من جهة أخرى، الأملار الذي يجعلنا نهتم بإلقاء الضوء على مفهوم القيمة، وأحكامها، وتصنيفات القيم، وغيرها حتى ينجلى اللبس حول المشكلة ونستطيع تبين أقرب معاني القيمة للدقة والإحكام.

القيمة بالمعنى الشائع: أن أول ما يتطرق إلى ذهن الإنسان العادي عندما نذكر كلمة قيمة «Value" أو القول بأن هذا الشيء قيم أو ذو قيمة هو أن هذا الإنسان يفضل هذا الشيء، بمعنى يرغب فيه "أو يحبه" أو أنه يلبي حاجة له، فعندما يقال بأن هذا المتلاع ذو قيمة فإنه يعنى أنني أرغب فيه أو أحتاج إليه وإذا قيل أإن هذا "أقيم" من ذلك، فإن هذا معناه أن هذا الشيء بالنسبة لي يعتبر= =مفضلاً عن ذلك، أو أنني أرغب فيه أكثر من الآخر، كما أن تقويم الشيء من وجهة نظر الإنسان العادي إنما يوحى بنفس المعاني، فأن تقوم شيئاً بمعنى أن تقدره وتقدير الشيء ينطوي على تفضيل ورغبة. ومن هنا نجد أن المعنى الشائع ينطوي على فهم ذاتي للقيمة، بمعنى ان قيمة الشيء إنما تتبع من صلتها "بشخص ما" وهذا وينجم عنه أن ما هو مفضل بالنسبة لي قد لا يكون كذلك بالنسبة لسواي.

ولكن لما كان هذا المعنى يجنح إلى كثير من التبسيط، والعمومية إنطلاقاً من موقف الإنسان العادي الذي لا يعينه من الكلمة غير الاستعمال العملي، فإننا سوف نحاول فحص معاني القيمة على مستويات أكثر تحديداً، ودقة ولعلها تكون أيضاً أبعد بمسافة كبيرة عن الاستعمال الشائع للكلمة.

المعنى اللغوي للقيمة :

قيمة الشيء في اللغة قدره. والقيمة مرادفة للثمن بمعنى أن قيمة المتاع تعنى ثمنه وتطلق القيمة أيضاً على ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته، ولا عتبارات اقتصادية أو سيكولوجية. أو اجتماعية، أو جمالية.

كما أن قيمة الشيء تعنى الصفة التي تجعل ذلك الشيء مرغوباً فيه ومطلوبا عند شخص من الأشخاص أو طائفة معينة من الناس. مثل ذلك قولنا: إن للنسب عند الأشراف قيمة عالية. وهذا يمثل المعنى الذاتي للقيمة.

أما من الناحية الموضوعية، فيطلق لفظ القيمة على ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقاً للتقدير كثيراً أو قليلاً، فإن كان مستحقا للتقدير بذاته كالحق والخير والجمال كانت قيمته مطلقة، وإن كان مستحقاً للتقدير من أجل غرض معين، كالوثائق التاريخية، والوسائل التعليمية، كانت قيمته إضافية.

مصطلحات القيمة «والتقويم» فلسفياً:

لقد جاءت المعالجة الفلسفية للقيم ضمن فلسفة الأخلاق وفلسفة الجمال وفلسفة السياسة، وغيرها. وكانت المذاهب الفلسفة المتباينة تحاول أن تجيب بشكل أو بآخر على الأسئلة والمشكلات المتعلقة بالقيم، وقد جاءت الإجابة شديدة الاختلاف نظراً لتباين المنطلقات التي تبدأ منها هذه الإتجاهات والمذاهب الفلسفية، وكان مصطلحاً «القيمة» و«التقويم» يعانيان أيضاً من اختلاف وجهات النظر عند استعمالهما إذا على كل اتجاه أو مذهب مهتم بالقيمة بالتعبير عن المصطلح بالطريقة تنسجم مع سياق هذا الاتجاه أو ذلك المذهب.

استعمال «القيمة» بالمعنى الضيق للمصطلح

في هذا الاستعمال تكون القيمة معبرة عن الخير Good أو المرغوب فيه Desirable أو الثمين Worth. وقد ناقش العديد من الفلاسفة منذ "أفلاطون" الموضوعات المختلفة التي طرحت تحت "القيمة" فيما بعد، تحت الخير. وفي هذا الإطار نجد أن القيم، وأشكال الخير قد صنفت على انحاء متباينة فقد ميز لويس Lewis المنفعة Utility أو الفائدة Usefulness عن الأغراض الأخرى. كما ميز القيمة الظاهرية (العرضية) Exterinsic Value والقيمة الوسيلية Instrumental Value أو وجود الخير كوسيلة لشيء مرغوب فيه- عن القيمة الأصلية Intrinsic وقد جعل القيمة الملازمة، أو الخيرية Inherent Value. Or Goodness ضمن القيم، مثل القيمة الجمالية للآثر الفني.=

أو المادة العلمية أو المناهج البحثية المتبعة في العلوم من كل القيم، حتى وإن كانت تخلو من القيم الثقافية أو الواقعية، فإن ذلك لا يعني أنها تخلو من كل القيم التي يحملها العالم لنا- كما وصف أوهير، وقد كان "جون ككيز" أكثر دقة في قوله بأنها تنفي العديد من القيم التي تجعل حياتنا مجديه.

٣- تفاؤلية التنوير (العلم، العقل، المجتمع)

لقد أُثيرت كل تلك النتائج عن النظرة النيوتنية للعالم من خلال من أطلق عليهم اسم مفكرو حركة التنوير للقرن الثامن عشر. وهم رجال مثل فولتيرVoltaire ديدروDiderot، كندياك Condillac كوندورسيه Condorcet، دالمبير d›Alembert وهلفسيوس Helvetius، لاميتر lamettrie وهولباخ - Ho bach وهم جميعا كتاب موسوعيين وفلاسفة (أو ليسوا فلاسفة من الدرجة الأولى)، فضلا عن كونهم علماء. لكنَّ كتاباتهم أبرزت روح عصرهم، وبدرجة لا بأس بها عصرنا نحن.

=الاستعمال بالمعنى الواسع (٩) وتستعمل كلمة قيمة كاسم مجرد بالمعنى الواسع لكي تشمل، إلى جانب الصواب Rightness الإلزام Obligation، والفضيلة Virtue والجمال Beauty والحق Truthوالقداسة Holiness. والمصطلح بهذا المعنى يقع في الجانب الموجب لخط الصفر. أما على الجانب الآخر (الجانب السالب) فيقع ما هو ضار، وخاطئ، وغير ملزم.. الخ ويسمى بعديم القيمة وهكذا نجدا أن هذا الاتجاه يرى أن المعاني الموجبة فقط هي التي يمكن تسميتها بالقيم أما المعاني السالبة، أو المضادة فعديمة القيمة.

- تشير كلمة قيمة- أيضاً- إلى ماله قيمة what has value أو ما يمكن أن يكون ذا قيمة Valuable أي أن القول بأن شيئاً ما "قيم" يعنى بأن هذا الشيء حاصل على القيمة، كما يشير إلى شيء خير أو صائب أو ملزم أو جميل أو حقيقي.

وقد أعتقد بعض الفلاسفة أن القيمة محمول عام General Predicate مثل "اللون" الذي اندرج تحته "محمولات قيمة" أكثر تعيناً، مماثلة لـ "الأحمر" والأصفر" وقد سميت محمولات القيمة هذه الأكثر تعيناً قيماً werer، values، valuer فاللون لا يعنى الشيء الذي له لون. بل لونا خاصاً كالأحمر مثلاً. وبناءً على هذا فالقيمة لا تعنى شيئاً حاصلاً على القيمة، بل نوعاً خاصاً من القيمة، مثل قيمة اللذة، أو قيمة الشجاعة. وقد أسمى هؤلاء الفلاسفة، الشيء الخير، خيراً، Good أو حاملاً للقيمة Value carrier إذن فإن الصفقة "ذا قيمة" تعنى حاصلاً على القيمة Having value وكونه خيراً، بمعنى ما (أو ربما بشكل أوضح لدي كميات ذات اعتبار من القيمة Having A Considerable Amount Of Value).

وهكذا فإن استخدام مصطلح القيمة كاسم أكثر واقعية قد افضى إلى أننا عندما نتحدث عن القيمة في (أ)، (ب) فإن في وسعنا أن نميز أنواعاً مختلفة من القيم تناظر الأنواع المختلفة لصور الخيير، ويمكن أن نميز أيضاً، ولكن بوضوح أقل، بين القيم الروحية والقيم المادية، أو بين القيم الاقتصادية والقيم الأخلاقية والجمالية وقم المعرفة والقيم الدينية إذ أن القيم تعنى ما يقوم، أي مناحكم بأن له قيمة، أو أنه مرغوب.. الخ، أو ما هو قيم، أي الشيء الخير أو الصائب أو الجميل.. الخ.

ثم هناك من جعلوا القيم لا تعنى "شيئاً" حاصلاً عليها بل نوعاً خاصاً من القيمة كاللذة والشجاعة. والشيء ليس إلا حاملاً للقيمة، وبالتالي جعلوا القيم محمولات لموضوع هو الشيء من الحاصل عليها، وهؤلاء هم الذين تأثروا "بشيلر" و"هارتمان". (أنظر، رمضان الصباغ: الاحكام التقومية في الجمال والأخلاق، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية،ط١، ١٩٩٨)

فقد اقاموا بتوضيح النتائج التي اتبعت أو بدا أنها تتبع العلوم الجديدة للقرن السابع عشر ونجاحاتها. وقد طبقوا دروسها على كل الخبرات، بما في ذلك الخبرة الإنسانية[١].

إن الاسمين اللذين كانا يسودان الأبحاث الفلسفية في ذلك الحين هما نيوتن ولوك. فيقول «دالمبير» إن لوك قد خلق الميتافيزيقا، كما خلق «نيوتن» الفيزياء. وذلك أن لوك يعرض علينا تاريخ العقل الإنساني أما نيوتن فيجعلنا ندرك الكون على أنه مجموعة من القوانين. ومنذ ذلك الحين، نجد أن الوضعية هي التي أخذت ملامحها في الوضوح عند فلاسفة من أمثال لاميتر وكندياك. فلاميتر يؤكد أن كل ما لا ينبع من حضن الطبيعة، وكل ما ليس بظاهرة أو علة أو معلول لا يخص الفلسفة في شيء[٢].

فماذا سيكون منهج هذه الفلسفة الجديدة ؟

إنه يقوم على الأفكار الواضحة المتميزة. ولكنها أفكار نحصل عليها عن طريق التحليل والملاحظة. يقول هلفسيوس «: كل فكرة يمكن أن ترد إلى وقائع أو إحساسات فيزيائية»، وهو يعتقد أن أسمى الحقائق إذا تم تبسيطها مرة وردها إلى أقل حدودها ، تتحول إلى وقائع[٣].

١- فولتيـــر:

بالنسبة لـ«فولتيرVoltaire (١٦٩٤ – ١٧٧٨م)" كان التنوير فوق كل شيء هو إزالة العوائق التي تقف في طريق ثقافة وتقدم الإنسانية: الرقابة، الكنيسة، طبقة النبلاء، النظام القديم للحكم- كل المصالح الشخصية المتآمرة لإبقاء الناس في جهل وخضوع. "اسحقوا العارEcrasez l' infâme» كانت شعاره تخلصوا من الدوجماتيقية الدينية، الخرافة والتعصب[٤].

يظهر لنا «فولتير» كيف أن كل الشعوب القديمة كانت تؤمن بخرافات وأساطير وينتهي إلى القول بأن هذه الخرافات والأساطير من صنع وابتكار القساوسة والكهنة. « لقد كان أول كاهن أول محتال يقابل أول أحمق». على كل حال إن فولتير لم ينسب الدين نفسه

(1)O'Hear, Anthony, After Progress, p.16

(٢)جان فال: الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: د.فؤاد زكريا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ص٤٥، ٤٦.

(٣) نفسه، ص٤٦

(4) O'Hear, Anthony, After Progress, p.17

إلى الكهنة والقساوسة، ولكنه نسب لهم علم اللاهوت، إن الخلافات البسيطة في علم اللاهوت هي التي سببت هذا النزاع المرير والحروب الدينية[١].

عندما يمعن فرد النظر في حماة الإيمان الصحيح وحلفائه ومؤيديه الحقيقيين: الكنيسة الكاثوليكية الفاسدة والماكرة وملوك المسيحية الكاثوليكية الخالصين. والمسيحية في ممارستها الفعلية، وجد «فولتير» الاضطهاد ، النزاع، التعصب، الأخلاقيات سيئة السمعة، والمذاهب الدنيئة مؤيدة بالوحشية[٢].

مقارنة بالوحشية والتقليل من شأن العقل البشري التي وجدها «فولتير» في الكاثوليكية الرومانية، رأى هو وتابعيه شيء ما هائل يتحرر في التجريبية العقلانية والمستقرة المتبناة من قبل «بيكون» والمطورة من قبل «لوك» والمفكرين الواضعين لقواعد العلمية البريطانية. من الفرضية التي يجب على معتقداتنا وعقائدنا اختبارها في تجربة الأفراد بصدق وبدون إجحاف سعيًا وراء الحقيقة، يجب اتباع كلٍّ من الليبرالية السياسية والعقلانية العلمية[٣].

بالنسبة ل«فولتير»، كما هو الأمر بالنسبة ل«لوك»، بدا أن ارتقاء البشرية إلى البلوغ الثقافي والسياسي وشيك. رفع «فولتير» من شأن «لوك» فوق الجميع من أجل محاولاته في تحليل العقل البشري علميًا، بدون إجحاف وعبر ملاحظة متأنية لأعماله، تمامًا كما حلل «نيوتن» الطبيعة. على عكس التدفقات الصوفية على الروح، والتي انبعثت من عقود الميتافيزيقية السابقة فيما، كان «لوك» أول من وضع القوانين التجريبية للدراسة للتاريخ العقل وتطوره بنفس الروح مثل المشرح الممتاز الذي يكشف آليات الجسم البشري[٤].

ومن الممكن أن نلاحظ في «فولتير» ذلك الانتقال التدريجي لعصر التنوير من المفهوم الرياضي الاستنباطي للعقل الخالص إلى النظرة التجريبية للعقل وفقًا للنموذج الذي تقدمه العلوم الفيزيائية والبيولوجية. وقد كان لهذه النقلة تأثير ملحوظ في الدعاوي الخاصة بإمكان قيام معرفة إنسانية بالله[٥].

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي (حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم)، ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت ، ط ٥، ١٩٨٥، ص ٢٩٨.

(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.18.

(3) Ibid,p.18.

(4) Ibid, p.19.

(٥) جيمس كولينز: الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة: فؤاد كامل، دار قباء للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٨، ص٢٠٨.

إن المعرفة الإنسانية بالله هي النظر لله باعتباره «أشبه بصانع دقيق للساعات» «فإما أن النجوم مهندسون عظماء، وأما أن المهندس الأبدي ينظم النجوم»، وهو يوجه النقد إلى أولئك الذين لا يقبلون فكرة العلة الغائية: «أليس القول بأن العين لم تخلق النظر، هو أكبر السخافات؟»، وإلهه له أخلاقي أيضا. وبهذا المعنى يقول إنه لو لم يكن الله موجودًا، لكان لابد من اختراعه. ففكرة العناية الإلهية تتيح لنا بأن نجعل من الإله صانع الساعات، إلهًا ضمنيًا للخير.[١]

٢- ديـــدرو:

لقد كانت الأيديولوجية الكامنة مادية، ملحدة وعلمية بشكل حتمي فبالنسبة للموسوعيين مثل دينيس «ديدرو Denis Diderot (١٧١٣ – ١٧٨٤م) "والفلاسفة "هولباخ" و"لاميتر"، وعالم الحساب كوندورسيه "لابد من تحليل وتفسير العقل البشري والمجتمع علميًا، كما يتم تفكيك الأجسام الفيزيائية وتقليلها من خلال فيزياء "نيوتن". ستكشف العلوم الاجتماعية والنفسية منابع النشاط البشري لكي تكون في الواقع هي البحث عن السعادة وتجنب الألم[٢].

لقد أكد «ديدرو» على أن اللذة والألم، وكذلك الحاجات الاجتماعية، هي الدوافع المتحكمة في السلوك الإنساني. وتعبر الحتمية الديناميكية للطبيعة عن نفسها في الدوافع الجمالية والأخلاقية الإنسانية[٣]. بهذه المعرفة سنكون قادرين على تحرير أنفسنا من قيود الغريزة، العاطفة، الإجحاف، والتقاليد القمعية الكاذبة، والتي تجعل منا أشياء لم نكنها من قبل. بمجرد أن نفهم كيف تشكلت الأفراد والمجتمعات والأساس الذي اشتغلوا عليه، سنكون قادرين على بناء نظام جديد للعالم حيث تنتظم حرية ورغبات عدد ضخم من الأفراد في مملكة من السلام والنظام العالمي[٤].

يقول ديـــدرو:

قد تكون المادة تسهيلًا كبيرًا للعالم وقد تكون كل أنواع المادة حسية بالغريزة، ومن

---

(١) جان فال: الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة: فؤاد كامل، ص٤٨.

(2) O'Hear, Anthony, After Progress ,p.19.

(٣) جيمس كولينز: الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة: فؤاد كامل، ص٢٢٢.

(4) O'Hear, Anthony, Op.cit, p.19.

المستحيل تقليل وحدة الوعي والشعور للمادة والحركة، ولكن المادية سلاح ماض ضد الكنيسة، ويجب أن نستخدمها إلى أن نجد شيئًا أفضل منها. وفي الوقت ذاته يجب على الإنسان أن يعمل على نشر المعرفة وتشجيع الصناعة، إذ إن الصناعة تحقق السلام، والمعرفة ستخلق أخلاقًا طبيعية جديدة[١].

لقد كانت قيمة المادة مرتفعة عند «ديدرو» إلى حد أنه تساءل «ألا يجوز أن يكون العالم هو الله؟» إنه يرى العالم كأنه حيوان أو إنسان هائل:» من أدراكم أنه ليس لهذا العالم مخ كالإنسان؟ « وهناك كائن مركزي، مادي، ولكنه منتج للروح «المادة تستطيع أن تصنع الروح». وهي تستطيع أن تصنع الله وأن تكون هي الله[٢].

٣- كـونـدورسيـه :

في نهاية القرن الثامن عشر، تحقق من جديد في «كوندورسيه Condorcet" روح الانكسلوبيديا (الموسوعة) في صورتها الخالصة، ولقد كان إخلاصه لروح "دالمبير" أكثر من إخلاصه لغيره من الموسوعيين، لذلك أكد القيمة العليا للرياضيات[٣]. في الوقت نفسه نجده يلقي ضوءًا متزايدًا على عناصر الوضعية التي كانت متضمنة عند (كنديلك- فولتير- ديدرو) ،فيقول :

«لاتستطيع الروح أن تستنفذ كل وقائع الطبيعة أو حتى كل العلاقات الكمية[٤]».

إن "أوهير" هنا يطرح تساؤلًا ليوضح به فكر «كوندورسيه» فيقول: « لماذا لا يتساوى الجميع في امتلاكهم للعقل وأيضًا في حاجتهم الرئيسية طلب السعادة وتجنب الألم؟ هل عملية الإجحاف، العقائدية وخرافات المصالح الذاتية لم تكن بالبساطة التي تمنع الجنس البشري من تحقيق مصيره الحقيقي؟[٥].

في محاولات «كوندورسيه» كان قدر البشر إعادة تأسيس حقوق وكرامة طبيعته من خلال إيجاد الفردوس التي يعرف العقل فيها كيفية الإبداع – إنها وبكلمات «كوندورسيه»

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي،ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، ص٢٨٩.

(٢) جان فال: الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة: فؤاد كامل، ص٥٦.

(٣) نفسه، ص٦٣.

(٤) نفسه، ص٦٤.

(5) O'Hear, Anthony, After Progress, p.19.

الإلهامية «فردوس العلوم والعقل»- ، في هذه الفردوس، الجريمة والظلم التي لا تزال تلطخ الأرض، ستهزم مرة واحدة وللأبد، وستأخذ معها الجشع والخوف، الحسد والرغبة، وبذلك تتحقق الحرية، المساواة والإخاء في الثورة الفرنسية[١].

ولقد كتب «كوندورسيه «تحت عنوانه الكبير (رسم الصورة التاريخية لتقدم الشخصية الإنسانية sketch of a Historical picture of the progress of the Human spirit)، والذي نشر بعد وفاته في ١٧٩٥م:

"لقد سمح لنا في نهاية المطاف أن نعلن بصوت عال الحق الذي لا طالما لم يتم الاعتراف به، وإخضاع كل الآراء للفحص من قبل عقولنا. يجب علينا، بكلمات أخرى، أن نستخدم الآلة الوحيدة التي أعطيت لنا لفهم الحقيقة. فإن كل فرد يأتي للتعلم بنوع من الفخر، الذي لم تقدره الطبيعة على امتلاكه ليعتمد في اعتقاده على تقبل رأي الآخر"[٢]

٤- لاميتـــر:

لقد أعلن «لاميتر le mettrie (١٧٠٩- ١٧٥١م)" أن كل العالم بما في ذلك الإنسان عبارة عن آلة، فيقول:

"عندما أقوم بفعل الخير أو الشر، عندما أكون فاضلًا في الصباح، وفاسدًا في المساء، فإن دمي هو السبب.... على الرغم من ذلك، أصر على الإيمان بأنني قمت بالاختيار، فأهني نفسي على حريتي... كم نحن حمقى! فالحمقى هم الأكثر تعاسة، حيث نلوم أنفسنا باستمرار على فعل شيء لم يكن في مقدورنا ألا نفعله"[٣].

والنفس مادة، والمادة نفسانية، ولكن مهما كانتا فإن الواحدة تؤثر على الأخرى وتعمل فيها، وتنموان وتفنيان مع بعضهما بطريقة لا تترك شكًا في تشبهما الضروري واعتمادهما المتبادل. إذا كانت النفس روحًا محضة، كيف تستطيع الحماسة أن تدفئ الجسم، أو أن تعكر حمى الجسم عملية الفكر[٤]؟ جميع الأجسام الحية تطورت من نطفة

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.19.
(2) Ibid, p.20.
(3) Ibid, p.21.
(٤) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، ص٢٨٨.

أصلية خلال العمل المتبادل للجسم والبيئة[١].

وفي هذا يقول :

« تعد الروح رمزًا فارغًا لمن لا يملك هذا المفهوم، ويمكن للعقل السليم توظيفه فقط من أجل إظهار ما الذي يفكر فينا. بالنظر لأدنى قاعدة للحركة، فإن الأجسام ذات الحس ستمتلك كل ما تحتاج إليه من أجل أن تتحرك، تشعر، تفكر، تكرر وتجدد، في كلمة واحدة، كل ما تريد من الفيزيائي والعقلي أيضا، هو الشيء الذي تعتمد عليه[٢].

يوضح "أو'هير" إن القوتان الشبه نيوتونية التي تحدد السلوك الإنساني هي السعادة والألم. تماما كما في العلم النيوتوني تبدو الصفات الثانوية مثل اللون، الحس، الصوت، التذوق والشم مجرد ظاهرة، كذلك في علم النفس العلمي الحديث كل تكلفنا وأناقتنا ليست أكثر من وسائل لتحقيق السعادة وتجنب الألم[٣].

وقد ربط «هولباخ» بين فيزياء نيوتن وعلم النفس الخلقي و في ذلك يقول:

يعد الحفاظ على الذات هو الهدف المشترك الذي يوجه كل الطاقات، القوى، والخواص الإنسانية باستمرار. أطلق العلماء على هذه النزعة أو الاتجاه اسم الجاذبية نحو المركز. يطلق عليه نيوتن اسم قوة القصور الذاتي، وأطلق عليه الأخلاقيون حب الذات الإنسانية...الميل للحفاظ على النفس...حب الرفاهية والمتعة[٤].

سوف يستمر هذا القصور الذاتي النفسي في الحفاظ على ما أطلق عليه « لاميتر« و "هولباخ" الآلة البشرية في حالة من التوازن الداخلي. و نتيجة لذلك يعد العقل هو المخ فحسب، جزء من الجسم الفيزيائي، وفي حالات دقيقة يخدم أهداف بقية الجسم الفيزيائي. يجري عليه ما يجري على باقي أجزاء الجسم، فهو غير متحرر ومحدد بعوامل خارج سيطرته كسلوك أي جزء آخر في الطبيعة[٥].

ولقد كان ل "أو'هير" موقف من هذا الرأي يوضح فيه هل الإنسان حقا ليس أكثر من آلة أم أن الإنسان يمتلك عقلًا يفكر ويعتقد ويقرر؟

---

(١).ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي،ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، ص٢٨٨

(2) O'Hear, Anthony, After Progress,p.22.

(3) Ibid, p.22.

(4) Ibid, p.2.2

(5) Ibid, p.23.

وفي هذا يقول:

«نحن نؤمن في هذه الأيام بأن خبراتنا ومعتقداتنا تتوقف على حالة أمخاخنا. ولهذا دعنا نفترض أن عقلًا من العقول تم نقله من جسم صاحبه، وتم الحفاظ عليه حيًا في وعاء. ثم قام أحد العلماء المهووسين بتوصيل المخ بطريقة تجعله يستقبل نفس البواعث من آلات ابتكرها العالم تعلم على طريقة عمل المخ العادي عندما يستقبل الإشارات من جسده و أوصاله، وأعضائه الحسيه»[1].

السؤال هو كما يوضح "أو'هير" : كيف أعرف أنني لست ذلك المخ؟ لا يوجد أي شيء في خبرتي يمكنه أن يوضح لي أنني لست ذلك المخ، وذلك لأن تدفق الخبرة يكون متطابقًا في الحالتين. كيف يتسنى لنا أن نعرف أن خبرتي للشجرة تمثل الشجرة تمثيلًا حقيقيًا؟ وكيف يتسنى لنا أن نعرف أن الشجرة تكون في حقيقتها على النحو الذي يبدو لي؟ ربما يكون العالم في نهاية المطاف بما في ذلك الشجرة، يتألف من جزئيات لا لون لها (كما ظن «نيوتن»). فطبقًا لتفسير «نيوتن»، يمكن القول إن انطباع اللون هو ما يحدث عندما تبدأ تلك الجزئيات التي لا لون لها في التفاعل مع عيني ، ثم في التفاعل مع مخي من خلال عينيَّ[2].

المشكلة تتمثل هنا في أننا لا نستطيع أن نخرج خارج خبرتنا لكي نتمكن من رؤية الشجرة بشكل مباشر، وحتى يتسنى لنا مقارنة الشيء الحقيقي بكيف يبدو لنا. إن «الشيء الحقيقي» ينتقل إلينا دومًا عبر وساطة خبرتنا. كما أن الفكرة التي تقول إن هناك أنا أو ذات أو نفس جوهرية خاصة بي تظل قائمة من خلال سائر أفكاري وخبراتي، هي فكرة تشكل أحد معتقداتنا التي نقبلها بدون تفكير. غير أن الكثير مما تقوم «ذاتي» بفعله يصعب تمامًا الوعي به. حيث إنه من الممكن أن تبدو «ذاتي» منقسمة مثلما أن من الممكن أن تبدو ذاتي متوحدة كما أن معتقداتي المتعلقة بدوافعي ومشاعري نتاج للخداع – الذاتي بقدر ما تكون نتاجًا لاستبصار شفاف ودقيق لنفس الباطنية[3] .

إذا كنا فقط أجزاء من آلة نيوتن العالمية، التي أدت بنا إلى العمل تبعًا لقوى «نيوتن»

---

(١)أنطوني أو'هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، ص٤٣.

(٢) نفسه، ص٤٥.

(٣) نفسه، ص٤٧.

نفسها كقوى عمياء وغير مستجيبين لأي شيء إلا قوانين الفيزياء، كيف يمكن القول بأننا أحرار في أفكارنا؟ كيف يمكننا حقًا أن نحكم طبقًا لقوانين الحقيقة وفي ضوء العقل إن كان كل ما نقوم به - في الحقيقة- محددًا من خلال قوى لا تعرف شيئًا عن الحقيقة أو العقل، وإن كان كل ما نقوم به محددًا بواسطة حاجة جسمنا لاكتساب السعادة وتجنب الألم، لن يكون ببساطة أي نشاط عقلانيًا مزعومًا قناعًا للمزيد من الاهتمام بالذات وأقل عقلانية[1].

يمكن للأخلاق أن تحيا بصعوبة بمجرد قبول القول بأن السعادة والألم هما فقط المقرران الوحيدان للنشاط البشري. أين يوجد أي مجال لكلمة «يجب» في عالم «نيوتن» وعلم نفس السعادة – الألم، نحن مضطرون إلى العمل على أوامرهم. فهم كما هم. وفوق ما هم عليه ليس هناك خير أو شر، ليس هناك شعور بأن هناك سعادة أحسن من أخرى، أو أن البعض فاسد أو غير مدعوم. فلا يجب عقاب المجرم أو المنحرف أو إلقاء اللوم عليهما، لكن لابد من الإشفاق عليهما وإصلاحهما، والتوفيق بين رغباتهم وباقي المجتمع[2].

وهنا يضرب "أو'هير" مثلًا يوضح فيه كيف كان «ماركوس دي ساد» أحد السجناء القلة للنظام القديم في باستيل في يوليو ١٧٨٩م. هل كان «دي ساد» ابنًا حقيقيًا للتنوير في إطار متحفظ؟ كما يذكر دي ساد نفسه:

ليس هناك شيء محرم علينا من قبل الطبيعة... (القوانين) هذه القيود الشائعة، لا تعكس شيئًا مقدسًا، لا شيء منطقي في نظر الفلسفة، التي يبدد لهبها كل الأخطاء ويترك في نظر الرجل الحكيم فقط تطلعات الطبيعة؛ فلن تفرض علينا الحدود، ولن تملي علينا القوانين[3].

إن «دي ساد» على صواب. ففي الحقيقة ليس هناك مجال داخل الفلسفة وعلم نفس التنوير لإدانته– كما يوضح "أو'هير" - نحن مخلوقات طبيعية، نخضع للقوى الطبيعية، لسنا أحرارًا بل ومقيدين تمامًا كأي جزء آخر في الطبيعة. فإن الهوى والذوق

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.24
(2) Ibid, p.2
(3) Ibid, p.24

في الديمقراطية الحقة، المعززة بادعاءات العلمية، يقوم التنوير بهذا المعنى بتحرير وتشريع ما فعله «دي ساد»[1].

يرى مفكرو حركة التنوير أن كل فكرة يمكن أن ترد إلى وقائع أو إحساسات فيزيائية. وأنه يجب إزالة العوائق التي تقف في طريق ثقافة وتقدم الإنسانية وفقًا للنموذج الذي تقدمه العلوم الفيزيائية والبيولوجية. وعند البعض أن الأيدلوجية الكامنة مادية، ملحدة وعلمية بشكل حتمي، وهي تكتشف أن العلوم الاجتماعية والنفسية منابع النشاط البشري تكون في الواقع هي البحث عن السعادة وتجنب الألم. كما أكد البعض القيمة العليا للرياضيات، فكان قدر البشر إعادة تأسيس حقوق وكرامة طبيعة من خلال إيجاد الفردوس التي يعرف العقل فيها كيفية الإبداع. وأقرو أن كل العالم بما في ذلك الإنسان عبارة عن آلة. و العقل هو المخ فحسب، هو جزء من الجسم الإنساني.

وهذا ما دعا "أو'هير" للتساؤل؛ كيف يمكن القول بأننا أحرار في أفكارنا، إن كان كل ما نقوم به محددًا من خلال قوى لا تعرف شيئًا عن الحقيقة أو العقل. فلا يمكن الأخلاق أن تحيا بمجرد قبول القول بأن السعادة والألم هما المقرران الوحيدان للنشاط البشري. ليس هناك خيرًا أو شراً، ليس هناك سعادة أحسن من أخرى، ووضح أن هذا ما يجعلنا بمعزل عن إيجاد أساس ثابت. فكيف يمكن القول بأن كل ما يمكننا التمسك به هو الخبرة اللحظية. وهنا يتفق الباحث مع "أو'هير" ، فمحاولة اختزال الأخلاق في الشعور بالسعادة والألم والانتصار لقوانين العلم والفيزياء أمر مرفوض، فلا يمكن اختصار المجتمع الإنساني كله في مجموعة من القوانين الفيزيائية الصارمة.

تعقيب:

في طرح "أو'هير" لرؤيته لعصر التنوير، وجد أن تلك النظرة العلمية أثرت على بصائرنا واعتقاداتنا الأكثر قيمة. مما أحكم الخناق علينا. كما أنه كيف للأخلاق أن تحيا في عالم تحكمه السعادة والألم وكيف يساعد هذا النشاط البشري أن يسير في طريقة دونما تخبط أو هلاك. مما يقودنا إلى أن هناك أهداف في الحياة أعلى من خلق السعادة وتجنب الألم.

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.24